المكتبة الأندلسية ١

الدكتور مصطفى عوض الكريم

فن التوشيح

قدم له

الدكتور شوقي ضيف

دار الثقافة - بيروت

الدكتور

مصطفى عوض الكريم

فن التوشيح

قدم له

الدكتور شوقي ضيف

مكتبة الطالب

بيروت ١٩٥٩

جميع الحقوق محفوظة

الناشر
دار الثقافة

الطبعة الاولى
بيروت ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٩

مقدّمة

بقلم الدكتور شوقي ضيف

هذا بحث علميّ نفيس لا أعرف أحداً سبق مؤلفه إلى كتابة ما يماثله في موضوعه الطريف ، وقد كنا إلى عهدٍ قريب نلمّ بالموشحات فلا نعدو في كلامنا عنها ما كتبه ابن بسام في الذخيرة وابن سناء الملك في دار الطراز وابن سعيد في المقتطف من أزاهير الطرف وابن خلدون في مقدمته .

واشهد انني ملأني الأعجاب بهذا البحث وبصاحبه منذ اخذت في قراءته ، فقد وجدت الدكتور مصطفى عوض الكريم يبحث الموشحات بحث العلماء الأثبات الذين يتناولون ما يدرسون في صبر وجلد واناة وروية ، دون أن ينتقصوا من دلالة النصوص شيئاً أو يحرفوها عن معانيها ، وهو باحث امين منصف ، ينصف القدماء ، وينصف المحدثين اما القدماء فحين ينقل عنهم او يعرض لهم بالبحث ، واما المحدثون فحين يفيد مما نشروه من آثار او سبقوه به من آراء ، وكأنما بيده موازين عادلة لا تعرف الظلم ولا الحيف ولا التجني ، إنما تعرف التثبت والتوقف والتحري .

وهو في الطليعة من إخواننا في القطر الشقيق — السودان — يدرس لطلابه في جامعة الخرطوم آداب اللغة العربية معنياً اشدّ العناية بالآداب الأندلسية ، وقد جعلها همه ووكده منذ كان يطلب العلم في الجامعات

الانجليزية ، واتخذ منها موضوعات بحوثه لدرجتي الأستاذية والدكتوراه . وبالأمس القريب نشر كتاب المطرب في أشعار أهل المغرب، لابن دحية، نشراً علمياً ظفر بتقدير الباحثين .

وعكف على دراسة الموشحات ، وهي أروع ما خلف الأندلسيون من تراث أدبي ، يقرأ فيها ويفحص في مأثوراتها وما كتبه المحدثون، عرباً ومستشرقين فيها من بحوث ، وما زال متوفراً على ذلك سنوات حتى استقامت له معالم هذا البحث القيم الذي ابى له جده ودأبه ورغبته في الكمال ، إلا أن يكون بحثاً مفصلاً لا عن الموشحات الأندلسية وحدها ، بل عن الموشحات عامة في المغرب والمشرق ، في الأندلس وفي غيرها من البلدان العربية .

واستهل بحثه في الحديث عن الموشح واجزائه، واضعاً لها المصطلحات والرسوم أو بعبارة أدق ، محدداً دلالة ما يدور بين علمائنا السابقين من هذه الرسوم والمصطلحات . ثم مضى يدرس التقفية في الموشحة ، فألم الماماً حسناً بقوالب القافية التي ابتكرها شعراء المشرق من مثل المزدوجات والرباعيات والمسمطات والمخمسات مبيناً في وضوح أن قالب الموشحة في التقفية قالب جديد . ودرس أوزانها ، فألمّ أيضاً بما جدده العباسيون من أوزان وبحور ، لينتهي إلى أن تجديد الوشاحين في الأندلس كان أوسع دائرة ، إذ خرجوا في كثير من موشحاتهم على أوزان الخليل . ووقف عند الغناء وتطوره في الأندلس على يد زرياب وتلاميذه ، ليدفع الفكرة القائلة بأنه هو الذي أهّل لظهور الموشحات .

وبعد أن فرغ من هذه المقدمات ، أخذ يدرس نشأة الموشحة في الأندلس، ووقف عند ما ذكره ابن سعيد نقلاً عن الحجاري من أن أول من اخترعها مقدم بن معافى القبري (في القرن الثالث الهجري)—وهو عند ابن بسام ، محمد بن حمود القبري — وعن هذا المخترع الأول أخذها ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد المتوفي في العقد الثالث

من القرن الرابع. ويقرر ابن بسام في وضوح لا يشوبه ريب ان الموشحة تبدأ بخاتمتها او بما يسمى « بالخرجة » فالوشاح يبحث عن الخرجة أولاً، يأخذها عن اللغط العامي أو العجمي ويسميها المركز ، ويضع عليها الموشحة . ويزيد ابن سناء الملك ذلك وضوحاً ، فيقول في مقدمة كتابه « دار الطراز » : « والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح ، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة الى ابن حجاج شاعر بغداد الماجن) من قِبَل السُّخْف ، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قِبَل اللحن، حارة محرقة، حادة منضجة، من الفاظ العامة .... وهي أبزار الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنبره ، وهي العاقبة. وينبغي أن تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة ، وإن كانت الأخيرة . وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطرُ إليها ، ويعملها من ينظم الموشح في الأول وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية ، وحين يكون مسيباً مسرّحاً ومتبحبحاً منفسحاً ، فكيفما جاءه اللفظ والوزن خفيفاً على القلب أنيقاً عند السمع مطبوعاً عند النفس ، حلواً عند الذوق ، تناوله وتنوله وعامله وعمله ، وبنى عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس وأمسك الذنب ونصب عليه الراس : »

والموشحة لا تختلف عن القصائد والمنظومات المشرقية، مثل المسمطات والمخمسات في خرجتها العامية أو الأعجمية فحسب ، بل تختلف أيضاً في صياغتها المؤلفة من أقفال وأدوار وأن كثرتها تنبو عن أوزان الخليل. ويميل الدكتور مصطفى عوض الكريم إلى ما يقول به المستشرقون الأسبان ومعهم « جب » من انها ربما تفرعت من أغانٍ إسبانية ، يقول : «ونحن أميل الى الرأي القائل بأنّ الوشاحين الأوائل قد قلدوا شعراً غنائياً عجمياً ، كان موجوداً أمامهم ، سمعوه وامتلأت نفوسهم بموسيقاه وألحانه ، فحاولوا النظم على نهجه ، فجاءت الموشحات » . وكأنما احتفظوا فيها بأجزاء من تلك الاغاني الأعجمية ، هي الخرجات ،

فجعلوهـــا المراكز التي تدور عليها والأعلام المنصوبة التي يهتدون بها إليها .

والذي لا ريب فيه أن الموشحة فنّ أندلسي خالص ، وقد تخالف الدكتور مصطفى عوض الكريم في أنها نبعت من الاغاني الاسبانيـــة الأعجمية ، ونردها إلى تطور في المسمطات والمخمسات التي عرفت منذ عصر أبي نواس في القرن الثاني الهجري ، وإلى ما نزع إليه بعض الشعراء العباسيين من نظم الشعر على اوزان جديدة غير اوزان الخليل المتبعة ، على نحو ما نعرف عن أبي العتاهية ورزين العروضي معاصره. غير ان اختلافنا معه لا يقلل من قيمة بحثه ، بل يزيده قيمة وأهمية ، لأنه يتضمن من الآراء ما يدفع الباحثين دفعاً الى الاختصام حولها بين مؤيدين ومعارضين .

ويقول ابن بسام إن الموشحة كانت في اول نشأتها تنظم اشعاراً على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، دون تضمين فيها ولا أغصان ، ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي (المتوفي سنة ٤٠٣ للهجرة) فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز ، إذ وضع نصب عينه ان يسبق الخرجات بما يهيء لها في الآذان مثل : قلتُ أو غنى أو أنشد . يقول ابن سناء الملك: « والمشروع بل المفروض في الخرجة أن يُجعل الخروجُ إليها وثباً واستطراداً وقولاً مستعاراً على بعض الألسنة ..... واكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران . ولا بد في البيت قبل الخرجة من : قال وقلت أو غنى أو غنيت » .

ويعقب ابن بسام على صنيع الرمادي بقوله : « ثم نشأ عبادة بن ماء السماء (المتوفي سنة ٤١٩ أو ٤٢٢ للهجرة) فأحـــدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها » . وهو يشير بذلك إلى ان الصورة النهائية للموشحة إنما تمت عند عبادة . فقد أخذت تتألف من اقفال ذات أغصان متقابلة وادوار ذات سموط ، ولكلّ

منها رسومها وتقاليدها ، أما الاغصان فتتقابل في الاقفال جميعاً متحدة في الأوزان والقوافي ، واما السموط فتتحد في دورها الخاص وزنـــاً وقافية وتختلف مع سموط الأدوار الأخرى في القافية دون الوزن .

ومعنى ذلك ان انتظام الموشحة في كيانها الحيّ الذي نعرفه للموشحات الأندلسية إنما تكامل عند عبادة بن ماء السماء ، فهو الذي اعطاها شكلها التام في بناء الاقفال والادوار وائتلاف غصونها وسموطها وتداخلها بعضها في بعض ، بحيث لا نستطيع الوقوف على جزء منها ، حتى ننتهي الى الخرجة التي يتشوّق اليها السامعون وينتظرونها في شوق ولهفة . ويمضي عبادة ويخلفه الوشاحون في عصور ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين فيزدهر فنّ الموشحة عندهم ازدهاراً رائعاً ، إذ يصبح بحوراً من النغم الرشيق ، تخلب العقول والألباب . وينتقل من المغرب الى المشرق ، فيقبل شعراؤنا عليه ، ويصبح قرة أعينهم منذ ألّف فيه ابن سناء الملك كتابه الرائع « دار الطراز » .

ويعرض علينا ذلك كله الدكتور مصطفى عـــوض الكريم عرضاً بديعاً ، يستوفي فيه جوانب بحثه استيفاء دقيقاً . حتى اذا أتمّه وضع تحت أعيننا أطرف ما قرأ من موشحات أندلسية ومشرقية . وانا أهنئه بهذه الدراسة العلمية التي لا أشك في انها ستكون نبراساً هادياً للباحثين في الآداب الاندلسية والعربية ، كما لا اشك في انه سيتبعها بدراسات ممتعة كثيرة ترضي العلم والعلماء بمـــا تكتشف من جوانب آدابنا في القديم والحديث .

والله أسأل أن يرزقنا السداد في القول والأخلاص في الفكر والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الدكتور شوقي ضيف